المقتطف

الجزء التاسع من المجلد الثالث والثلاثين

١ سبتمبر (ايلول) سنة ١٩٠٨ — الموافق ٥ شعبان سنة ١٣٢٦

البلاد العثمانية

ماضيها ومستقبلها

ماضي البلاد العثمانية ومستقبلها موضوعان جليلان الاول منهما لا يوفيه المؤرخ حقهُ ولو اشتغل بهِ العمر كلهُ والف فيهِ مئات المجلدات . والثاني تدخل فيهِ مئات من العوامل حتى يتعذَّر على الفيلسوف العراني ان يحكم فيهِ حكمًا باتًّا ولو احاط بما لا يحصى من المعلومات ولذلك لا نطمع ان نأتي في هذه العجالة الَّا على نقطة من بحر مما يمكن ان يكتب في هذين الموضوعين

***

تشمل البلاد العثمانية اعظم الممالك القديمة بابل واشور ومصر وفينيقية وممالك الحثيين واليهود والمكدونيين والعرب والارمن وممالك اليونان القديمة في بر الاناضول ومدنهم المشهورة فريجية وليسية وبثينية وليدية وميسية وغلاطية وترواده وكبدوكية الخ وقد دخلت هذه الممالك كلها في حوزة الاسكندر المكدوني ولكنها انفصمت بعد موته بين قوَّادهِ وصارت ممالك متباينة متنافسة . ثم دخلت في حوزة الرومان وطال تسلطهم عليها ولكن لا كما طال تسلُّط آل عثمان ولا كان عصرهم عصر علم وعرفان مثل عصرنا الحاضر مع انهُ كان من ارقى عصور التاريخ القديم . وقبل ان استولى عليها آل عثمان استولى عليها العرب من بني امية وبني العباس وغيرهم من الدول التي نشأت في عهدهم او جاءت بعدهم

وليس في ما لدينا من كتب التاريخ تفصيل محقق يُعرَف منهُ ما كانت عليهِ هذه الممالك لما استولى عليها آل عثمان من حيث عدد سكانها ومعايش اهلها وحالهم من الحضارة ولكن

التواريخ والآثار القديمة تدل دلالة قاطعة على انها كانت قبل عهد العرب اكثر سكاناً واوفر عمراناً مما هي عليهِ الآن حتى لا يكاد يصدَّق ان سكانها الحاليين هم نسل الذين بنوا هيا كل بابل واشور ولقصر وكرنك وبعلبك وجرش وتدمر

فالقطر المصري وهو من اخصبها بقعةً واقلها تمرُّغاً للجماعات كان عدد سكانهِ نحو عشرة ملايين من النفوس في زمن الفتح فقلوا رويداً رويداً حتى بانوا في زمن الحملة الفرنسوية نحو مليونين وقدَّرهم لولند الفيلسوف الرحالة الفرنسوي بنحو مليونين وربع مليون ولولا العناية الخصوصية التي تتمتَّع بها هذا القطر منذ ربع قرن لما زاد عدد سكانهِ الآن على سبعة ملايين او ثمانية

وسورية كانت مملكة عظيمة بل كانت تضمُّ ممالك عظيمة تناظر مصر وتحاربها ونشأ من ابنائها القرطاجنيون الذين نافسوا الرومانيين ودوَّخوا اسبانيا وايطاليا

ومملكتا بابل واشور اعظم ممالك العهد القديم واكثرها سكاناً وارقاها عمراناً اضف الى ذلك ممالك اليمن والحجاز والانباط واليهود والارمن وممالك آسيا الصغرى والرومي

والمتواتر ان سكان الممالك العثمانية كانوا مئة مليون نفس فقلوا رويداً رويداً الى ان بلغوا ثمانية عشر مليوناً فقط في اوائل القرن التاسع عشر ثمانية ملايين منهم في اوربا وعشرة في آسيا اي نحو سدس عدد السكان الاصليين

والظاهر ان هذا النقص الفاحش لم يحلَّ بالبلاد من عهد قديم فقد اقام احد الانكليز سنين كثيرة في البلاد العثمانية في اواسط القرن الثامن عشر وبحث في شؤونها السياسيَّة والمعاشية بحثاً مدققاً والَّف كتاباً في ذلك طبع سنة ١٧٩٨ اي منذ مئة وعشر سنوات وعقد فيهِ فصلاً مسهباً للاسباب التي قلَّلت عدد السكان قال فيهِ ما خلاصتهُ

" ان اول هذه الاسباب الطاعون الجارف الذي لا تخلو البلاد منهُ . وثانيها الامراض التي تنتشر بعدهُ . وثالثها سائر الاوبئة وافدة كانت او غير وافدة . ورابعها المجاعات . وخامسها الامراض التي تعقب المجاعات وتفتك بالسكان

" اما الطاعون فينتاب بلاد الدولة في آسيا مرة كل عشر سنوات ويموت بهِ ثمن السكان الى عشرهم وقد يموت بهِ ربعهم . وآخر طاعون وصل البصرة مات بهِ تسعة اعشار سكانها بعد ان فارقها ٩٦ سنة

" وينتشر الطاعون في آسيا من مصر ثم يعود الى مصر من القسطنطينيَّة وقد مات بهِ في القاهرة في يوم واحد سنة ١٧٣٦ عشرة آلاف نفس

" وقدّر الدكتور رسل عدد سكان حلب سنة ١٧٧٠ مئتين وثلاثين الفاً فنقص عددهم في عشرين سنة مئة وثمانين الفاً وصاروا خمسين الفاً لا غير . وكان حول حلب منذ خمسين سنة اربعون قرية كبيرة عامرة بالسكان ولم يبقَ فيها الآن ساكن . ويتناب الطاعون حلب مرة كل عشر سنوات او اثنتي عشرة سنة

" وكان عدد سكان ديار بكر ٤٠٠ الف نفس سنة ١٧٥٦ فلم يبقَ منهم الآن سوى ٥٠ الفاً . وكان في بغداد ١٣٠ الفاً فلم يبقَ منهم سوى ٢٠ الفاً فان الطاعون الجارف الذي وقع فيها سنة ١٧٧٣ اماتَ ثلثي سكانها

" وكان في البصرة مئة الف نفس منذ عشرين سنة فلم يبقَ فيها الآن سوى ثمانية آلاف نفس

" وفي القسطنطينية شيوخ يتذكرون انهُ كان في الطريق بينها وبين انقره خمسون قرية عامرة بالسكان وليس فيها الآن ساكن . وكان لاحد اصدقائي الانكليز تجارة واسعة في هذه الجهات وفي دفاترهِ ودفاتر ابيهِ اسم خمسين بلداً كان يتعامل مع سكانها ولم يبقَ فيها الآن ساكن " . انتهى ملخصاً

هذا قليل مما ذكرهُ هذا الكاتب منذ مئة وعشر سنوات وقد بحث عن مالية الدولة العلية حينئذٍ وجنديتها وبحريتها واساليب الادارة فيها مما لا نتعرّض لهُ في هذه المجالة

والظاهر ان البلاد العثمانية بلغت اقصى درجات الضعف في اواسط القرن التاسع عشر ثم نهضت وبقيت ناهضة عشرين سنة او ثلاثين حتى بلغت بين سنة ١٨٦٠ و ١٨٨٠ مبلغاً كنا نحسد عليهِ ولا يزال قول المرحوم الخديوي السابق يرنّ في آذاننا لما قابلناهُ اول مرة في سنة ١٨٨٠ فانهُ تمنّى ان تصير مصر مثل سورية في مدارسها وجرائدها وحرية القلم واللسان فيها ونهوض اهلها في سبيل الارتقاء . كذا كانت سورية في ذلك العهد وما قبلهُ فني سنة ١٨٧٠ وقف كاتب هذه السطور خطيباً في المدرسة الكلية الاميركية وموضوع خطبتهِ وسائل الارتقاء فذكر ما يجب على الحكومة والمحكومين عليها باللائحة وكان والي سورية حاضراً والمرحوم خليل الخوري يترجم لهُ ما يتعذّر عليهِ فهمهُ فهماً الخطيب وصوّب قولهُ وطلب صورة الخطبة منهُ

والثلاثون سنة الاخيرة ارتقت فيها ممالك الارض كلها اكثر مما ارتقت في كل العصور الغابرة الاّ البلاد العثمانية فانها لم ترتقِ فيها الارتقاء الواجب او انحطت عما كانت عليهِ قبلها. ونحن واثقون الآن ان ذلك عصر مضى وانقضى ولن يعود وان في البلاد وسكانها كلّ ما

يلزم للرقي وقد زال المانع الذي كان يحول دون انمائها وارتقائهم فلا يعقل انهم يبقون حيث هم ولا يغتنمون هذه الفرصة للتعويض عما فات ومجاراة الامم الراقية

البلاد كلها من ضفاف الدانيوب شمالاً الى حدود السودان جنوباً ومن تخوم بلاد الفرس شرقاً الى الادرياتيك وتونس غرباً اخصب بلدان المعمورة تربة واكثرها استعداداً للزراعة من حيث كثرة امطارها وغزارة مياهها واعتدال حرها وبردها وتجود فيها كل انواع الحبوب والاثمار وكل الحاصلات الزراعية كالحرير والصوف والقطن والتبغ والزيوت والعطور وفيها كل انواع الاقاليم سهولها كالاقاليم الحارة وبجودها كالاقاليم المعتدلة وجزودها كالاقاليم الباردة وفي كل منها ما في تلك الاقاليم من انواع الحيوان والنبات

وفيها كل لوازم الصناعة معادن الذهب والفضة والنحاس والحديد والزيبق والكروم والزرنيخ والمنغنيس والانتيمون والصباذج والحمر والفحم الحجري وزيت البترول . وفيها الحراج الواسعة للخشب والوقود والقوة المائية لتوليد الكهربائية وكل ما يلزم للحياكة والدباغة والصياغة والحدادة والوراقة . واهلها مشهورون بحذقهم في الصناعة ولا تزال مصنوعاتهم القديمة المعدنية والزجاجية والخزفية والحجرية مما يباهى به في متاحف الدنيا وهذه المهارة قديمة من عهد الاشوريين والمصريين والفينيقيين واصولها موروثة في دم ابنائهم

وموقع البلاد التجاري من افضل المواقع في المسكونة لانها حلقة الاتصال بين الشرق والغرب والشمال والجنوب وقد تحولت عنها طريق التجارة بعد اختراع السفن البخارية ولكنها ستعود اليها بعد انتشار سكك الحديد فيها

فاذا اعطيت حقها من الحرية ووسائل الرقي فاقت بزراعتها وصناعتها وتجارتها ولا نرى مانعاً في طبيعة البلاد وطبيعة سكانها يمنعهم من ان يصيروا في مقدمة امم الارض

وسكانها اكثرهم من اقوام قديمة نمت قواهم الجسدية والعقلية حسب ناموس الارتقاء العام حتى بلغوا الدرجة العليا بين امم الارض فنشأ منهم العلماء والفلاسفة والمكتشفون والمخترعون واذا لم تمنع عنهم وسائل التعليم والتهذيب لم يقصروا عن غيرهم من ارقى الامم الراقية كما يظهر من مباراة ابنائهم لابناء الامم الاخرى اذا درسوا في مدرسة واحدة . أضف الى ذلك شدة صبرهم وقلة اقبالهم على المسكرات وخلو اجسامهم من الادواء التي تنتج عن ادمانها

وعدد هؤلاء السكان الآن نحو ٢٥ مليوناً في الولايات غير الممتازة وستة عشر مليوناً في الولايات الممتازة والمجموع ٤١ مليوناً والولايات غير الممتازة تحتمل اكثر من مئة مليون

من النفوس فان مساحتها مليون و ١٥٦ الف ميل مربع اي خمسة اضعاف مساحة المانيا وفي المانيا الآن اكثر من ستين مليوناً فلا عجب اذا صار سكان البلاد العثمانية خاصة غير ولا يأتيها المئوية مئة مليون نفس

ولا بدَّ لهذا الارتقاء وهذا النمو من اربعة امور جوهرية تطالب الحكومة بها لانها من عملها الخاص الاول استتباب الامن العام . والثاني تحديد الاموال التي تطلب من الاهلين للحكومة حتى لا تؤخذ منهم بارة واحدة فوق ما يجب عليهم اداؤه . والثالث اهتمام الحكومة بالمنافع العمومية التي يتعذَّر على الفرد القيام بها وحده ولا يحسن ان تسلَّم لشركات اجنبية ولم تستعد البلاد حتى الآن لانشاء شركات لها كتنظيم شوارع المدن وانشاء سكك الحديد والمرافىء البحرية وبناء السدود في الانهر لاصلاح الري . والرابع الاهتمام بالصحة العمومية لتقليل الوفيات ومنع دخول الامراض الوافدة . اي ان تفعل الحكومة العثمانية في بلادها ما فعلهُ لورد كرومر ورجالهُ في القطر المصري وان قيل ان اعمال لورد كرومر رقَّت هذا القطر ماديًّا ولم ترقهِ ادبيًّا كما يزعم البعض قلنا اننا نحن العثمانيين لا نطلب من حكومتنا ان تهتم بترقية عقولنا وآدابنا لاننا اذا كنا عاجزين عن ترقيتها بانفسنا فلا يحق لنا ان نذكر بين امم الارض ولقد انشأنا المدارس لعلنا وتهذبنا رغمًا عن استبداد الحكومة الماضية وبلغ شبابنا اليابان شرقًا وكليفورنيا غربًا وكندا شمالاً والترنسفال جنوبًا في طلب الرزق واحراز المعالي . وكل ما يمكن للفرد او للجماعة القليلة ان تفعلهُ لا نطلب من حكومتنا ان تهتم بهِ بل نطلب منها ان تتركنا وشأننا فيهِ واما ما لا يستطيعهُ الفرد الآن كانشاء السكك الطويلة والسدود الكبيرة والمرافىء البحرية والاحتفاظ بالصحة العمومية فهو الذي نكلفها بهِ لا غير ولا نتركهُ لها لتفعلهُ وحدها بل نساعدها فيهِ بجهدنا

والحكم البات في مستقبل البلاد العثمانية والامة العثمانية في علم الغيب ولكن الدلائل الحاضرة حتى كتابة هذه السطور تدلُّ كلها على ان المستقبل بهيج يردُّ اليها مجدها الذي تقلَّص منذ قرون . ولم تزُل عوامل التقهقر كلها من البلاد والمنتفعون من ضعف الامة العثمانية لا يرمون سلاحهم الاَّ اذا سُدَّت في وجوههم كل السبل التي يتجهون اليها فلا بد لحمي وطنهم من الثابرة في سبيل هذا الجهاد الى ان تتلاشى كل عوامل التأخُّر ويندحر خصوم الارتقاء . ونعود الى تفصيل بعض ما اجملنا في هذه العجالة